الفصل الرابع

ملاحظات و نتائج

- تواصل الحوار.
- ملفات يجب أن تغلق.
- لا مبرر للعلمانية في أرضنا.
- تأكيد كرامة الإنسان.
- المحرقة التي تُعَد لدعاة الإسلام.
- فلسفة تجفيف المنابع.
- حتى المسجد لم يعد خادماً للإسلام.
- هل ينجحون؟
- التدين الذي يروجون له.
- من الرابح من وراء ذلك؟

أريد أن أذكر في هذا الفصل بعض الملاحظات أو الواصايا التي أرى من الخير أن يتفاهم عليها دعاة الأصالة ودعاة المعاصرة ، إن كان لا بد من بقاء هذا التصنيف أو التقسيم :

تواصل الحوار

من هذه الملاحظات : ضرورة تواصل الحوار بين المخلصين من الفريقين ، لتصحيح المفاهيم ، وإزالة الشبهات ، وتقريب الشقة ، ومحاولة توسيع مساحة المتفَق عليه ، وتأكيد التعاون فيه ، والمناقشة الجادة في المُختَلف فيه ، والعمل على تضييقه ، والاجتهاد في الوصول إلى الصواب أو الصحيح أو الأصح ، ما وجدنا لذلك سبيلاً ، وإلا وسعنا التسامح والتماس الأعذار للمخالفين وإن اعتبرناهم نحن مخطئين .

وقد أمر القرآن بحوار المخالفين في الدين من أهل الأديان الكتابية الأخرى ، على أن يكون الحوار بأحسن الأساليب وأمثلها ، وأن يركز على مواضع الاتفاق لا على نقاط الاختلاف . يقول تعالى : ﴿**ولا تُجادِلوا أهْلَ الكِتابَ إلاَّ بالتي هي أحْسَنُ إلاَّ الذينَ ظَلَموا مِنهم وقولوا آمَنا بالذي أُنْزِلَ إلَيْنا وأُنْزِلَ إلَيْكم وإلَهُنا وإلَهُكم واحِدٌ ونحنُ لَهُ مسْلِمونَ**﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

فإذا كان هذا هو الموقف الواجب مع المخالفين في الدين ، فمن باب أولى أن يتبع مع المخالفين في الفكر .

* * *

• ملفات يجب أن تُغلق

كما أرى أن من الخير أن نفرغ من بعض القضايا التي حسمها البحث العلمي الجاد ، فينبغي أن نغلق ملفاتها ، ولا نظل نلف وندور حولها دون طائل ، فالأعمار أثمن وأقصر من أن تضاع في تحصيل الحاصلات ، وتوضيح الواضحات ، ونشر النشارة!

انظر إلى قضية مثل قضية «الربا» ، كيف ثارت منذ أكثر من نصف قرن ، حين كانت الرأسمالية الغربية في أوجها ، وكان المنهزمون فكريّاً ونفسيّاً من أبناء المسلمين يحاولون أن يجدوا لهم سنداً من داخل الشرع يبررون به استباحة الربا ، الذي جلبه الاستعمار في ركابه إلى ديار المسلمين .

تمحكوا بالتفريق بين ربا الجاهلية والربا الحاضر ، أو بين ربا الإنتاج وربا الاستهلاك ، أو بين الأضعاف المضاعَفة كما حاولوا أن يفهموه من سورة آل عمران وربا الفائدة المحدودة (١٠ ٪) أو نحو ذلك .

وقام العلماء الواعون الصادقون من رجال الشريعة ورجال الاقتصاد ، وردوا هذه الدعاوى كلها ، بمنطق علمي موضوعي رصين ، من أمثال : أبي الأعلى المودودي ، ومحمد عبد الله دراز ، ومحمد عبد الله العربي ، وعيسى عبده إبراهيم ، ومحمود أبو السعود ، وأحمد عبد العزيز النجار ، وغيرهم .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل دخل المسلمون في دور إيجاد البدائل الإسلامية عن المؤسسات الغربية الربوية ، فقامت المصارف الإسلامية ، ومؤسسات الاستثمار الإسلامي ، وطفقت تنمو وتتسع ، وتتطور إلى الأحسن .

ثم فوجئنا بمن يردنا خمسين سنة إلى الوراء، لنناقش من جديد ما فرغنا من مناقشته وانتهينا منه نظراً وعملاً!

ثم انظر المعركة التي بدأت في عهد الشيخ محمد عبده مع فرح أنطون صاحب مجلة «الجامعة» عن «الإسلام والسلطة الدينية»، والتي حسمها الأستاذ الإمام حين جعل من أصول الإسلام الستة في إرساء العلم والمدنية: «قلب السلطة الدينية» لا إقامتها وتشييدها لم تزل تظهر بين حين وآخر، كأنها أمر جديد.

أكد الأستاذ الإمام محمد عبده: «أن الإسلام هدم بناء تلك السلطة، ومحا أثرها، حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ورسم، لم يدّع الإسلام لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، ولم يجعل لأحد من أهله أن يحلّ ولا أن يربط لا في الأرض ولا في السماء، بل الإيمان يعتق المؤمن من كلّ رقيب عليه فيما بينه وبين الله سوى الله وحده. وليس لمسلم مهما علا كعبه في الإسلام على آخر مهما انحطت منزلته فيه إلا حق النصيحة والإرشاد».

وعن الحاكم قال الأستاذ الإمام: «إن الدين لا يخصه في فهم الكتاب والعلم بالأحكام بمزية، ولا يرفع به إلى منزلة، بل هو وسائر طلاّب الفهم سواء، إنما يتفاضلون بصفاء العقل وكثرة الإصابة في الحكم، ثم هو مطاع ما دام على المحجّة، ونهج الكتاب والسُنّة، والمسلمون له بالمرصاد، فإذا انحرف عن النهج أقاموا عليه، وإذا اعوجّ قوّموه بالنصيحة، والإعذار إليه، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فإذا فارق الكتاب والسُنّة في عمله وجب عليهم أن يستبدلوا به غيره. فالأمة هي التي تنصبه، وهي صاحبه الحق في السيطرة عليه، وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو

حاكم مدني من جميع الوجوه»[1] .

هذا ما قاله الأستاذ الإمام ، وقاله بعده العلاّمة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي مصر في زمنه في رده على كتاب علي عبد الرزاق «الإسلام وأصول الحكم» ، كما قرره العلاّمتان : محمد الطاهر بن عاشور شيخ علماء تونس ، ومحمد الخضر حسين شيخ الأزهر بعد في مصر ، في نقضهما للكتاب المذكور .

وهو ما أكده بعد ذلك كل مَن كتبوا عن نظام الحكم أو النظام السياسي من العلماء أو الدعاة أو القانونيين ، وهم جم غفير[2] .

ومع هذا الوضوح الحاسم ، أو الحسم الواضح ، في هذه القضية لا يزال تيار التغريب يمينيُّه ويساريُّه يبدئ فيها ويعيد .

وآخر ما قرأناه في ذلك ما كتبه المفكر الماركسي المعروف الأستاذ محمود أمين العالِم ، في مقاله في صحيفة «الأهرام» عن «الإسلام السياسي والسلطة» . وكان مما قاله : «هناك ما نطلق عليه اسم (التيار الإسلامي المعتدل) وما نطلق عليه اسم (التيار المتعصّب) ، وما نطلق عليه اسم (التيار الإرهابي) . على أنه برغم هذا التنوع والاختلاف ، فهناك موقف يكاد يوحد هذه التيارات جميعاً ، هو الموقف من السلطة . فهي جميعاً تدعو إلى (السلطة الدينية) . ولا تكتفي بالقول بتطبيق الشريعة الإسلامية أو باستلهامها . بل تدعو دعوة صريحة جهيرة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، في مختلف

(١) انظر : «الأعمال الكاملة» للإمام محمد عبده : ٣/٢٨٥-٢٨٧ .

(٢) انظر على سبيل المثال ما كتبه الأساتذة : محمد يوسف موسى ، ومحمد الصادق عرجون ، وحسن البنا ، وعبد القادر عودة ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالي ، ومحمد سليم العوا ، ومحمد أبو فارس ، وعبد الحميد متولي ، وأخيراً ما كتبه خالد محمد خالد «الدولة في الإسلام» معتذراً عما كتبه قديماً في كتابه : «من هنا نبدأ» .

ممارساته وأساليب حياته . بل لعلّ بعضها يدعو إلى أسلمة المعرفة والعلوم كذلك . لا العلوم الاجتماعية فحسب ، بل العلوم الدقيقة كذلك ، كالعلوم الطبيعية» [1] .

وطالما كتبنا وكتب الكاتبون : أن الإسلام لا يدعو إلى «سلطة دينية» بالمعنى الكهنوتي الذي عرفه المجتمع الغربي ، بل يدعو إلى «سلطة إسلامية» بمعنى أنها سلطة مدنية تختارها الأمة ، تعتمد المرجعية الإسلامية في تشريعها وتوجيهها وسياستها الداخلية والخارجية .

ولكن الأستاذ العالِم ينكر ذلك أيضاً ، ويعتبر الدعوة إلى أسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، أمراً منكراً ! ويعتبر ذلك من ابتداع ما سمَّاه «الإسلام السياسي» ، فماذا يريد من وظيفة للإسلام في الحياة ؟ ماذا يفهم من تطبيق الشريعة الإسلامية ، إذا لم تسلم السلطة ، ويسلم المجتمع ؟

لقد كان الأستاذ العالِم وزملاؤه أيام عز الماركسية يدعون إلى «مركسة السلطة» وإلى «مركسة المجتمع» ، فلماذا يريد للإسلام أن يبقى متفرجاً ، وهو يرى السلطة والدولة والمجتمع والثقافة ، تسير في اتجاه آخر ، قد يكون إلى اليمين ، أو اليسار ، ولكنه غير اتجاه الإسلام ؟ !

وماذا ينكر من أسلمة المعرفة ؟[2] أو أسلمة العلوم الاجتماعية ؟

---

(١) انظر الأهرام ١٩٩٢/١٢/٩ ، صفحة «الإرهاب والتطرف في فكر المثقفين» وهو الذي علّق عليه الأستاذ فهمي هويدي في مقاله الأسبوعي في ١٩٩٢/١٢/١٥ تحت عنوان «لكي لا نخوض المعركة الغلط» .

(٢) انظر ما نشره «المعهد العالَمي للفكر الإسلامي» في واشنطن عن قضية «أسلمة أو إسلامية المعرفة» بأقلام : المرحوم د . إسماعيل الفاروقي ، ود . عبد الحميد أبو سليمان ، ود . عماد الدين خليل ، ود . طه جابر العلواني .

وهل يعني ذلك إلا أسلمة الثقافة ؟ ومعنى أسلمة الثقافة : تحريرها من سلطان الثقافة الغربية -حتى تكون ثقافة أصيلة معبِّرة بحق عن ضمير الأمة وعقلها . ولا ريب أن العلوم الاجتماعية أوصل ما تكون بثقافة كل أمة ، وخصوصيتها الحضارية .

وهذا يقتضي أن تنظر إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية نظرة جديدة ، لا تقلد الغرب فيها تقليداً أصم أعمى ، ولا ترفض كلّ شيء عنده ، بل تعيد قراءتها بعقلية واثقة متفتحة غير مبهورة ، من خلال منظورها الخاص ، ومسلّماتها الدينية والفكرية ، فتأخذ منها وتدع ، وترجح وتضعّف ، بمنطق علمي موضوعي ، بعيد عن التعصب للقديم ، أو التعبد للحديث .

وبذلك تنشأ مدارس عربية إسلامية جديدة في هذه العلوم ، مكافئة للمدارس الغربية المختلفة فيها . وهذا لا يكون بمجرد إطلاق العناوين ، بل بالبحث الدؤوب ، والدراسة الجادّة الصبور .

أما «أسلمة العلوم الطبيعية» فلاأعلم مسلماً عاقلاً يدعو إلى ذلك ، إلا ما أشرنا إليه من قبل ، من ربط هذه العلوم بالأسلس النظري أو الفلسفي لهذا الكون ، وأنه مخلوق لله ، وأن قوانينه سنن لله فيه لا تتبدل ، فليس ما يجري فيه من باب المصادفات ، ولا هو من فعل الطبيعة العمياء ، وإنما هو صنع الله الذي أتقن كل شيء وقدّره تقديراً . وكذلك استخدام هذا العلم فيما ينفع الإنسانية لا فيما يضرّها . أي ربط العلم بالإيمان والأخلاق .

وهل يضير العلم الطبيعي أن يقول مَن استخدمه ما قال سليمان حين جيء له بعرش بلقيس في لمح البصر ، بواسطة «الذي عنده علم من الكتاب» ، فقال : ﴿**هذا مِن فَضلِ ربِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشكرُ أَمْ**

أَكفرُ﴾ ؟ [النمل : ٤٠] ، أو يقول ما قال ذو القرنين عندما أقام السدّ العظيم : ﴿هذا رحمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف : ٩٨] .

يبدو أن تصور الكاتب لأسلمة السلطة ، وأسلمة المجتمع ، وأسلمة المعرفة ، لا يمت بصلة إلى ما يدعو إليه تيار الوسطية الإسلامية ، الذي هو التيار الأعمق جذراً ، والأقدم عهداً ، والأوسع انتشاراً .

فالتسوية بين التيارات التي ذكرها ، ووصفها بالمعتدل والمتعصب والإرهابي ، تسوية بين مختلفين أو مختلفات ، كما تدل العناوين ذاتها .

* * *

● لا مبرر للعلمانية في أرضنا

ومن الملفات التي يجب أن تُغلق ما ذكره الدكتور كمال أبو المجد في ندوة (الإسلام والعروبة) وهو : ملف العلمانية التي تفصل الدين عن الحياة والمجتمع ، فقد نشأت في أرض غير أرضنا ، وقوم غير قومنا ، لظروف لا نظير لها عندنا .

إن الغرب نادى بالعلمانية ليواجه بها كهنوت الكنيسة الغربية التي وقفت مع الجمود ضد الفكر ، ومع الجهل ضد العلم ، ومع الملوك ضد الشعوب ، ومع الأغنياء والإقطاعيين ضد الفقراء والكادحين .

ونحن لا توجد لدينا بابوية ولا كهنوت ، ولا «رجال دين» ما حلّوه في الأرض فهو محلول في السماء ، وما عقدوه هنا فهو معقود هناك .

لقد بيَّنتُ في دراسة لي أن العلمانية في الغرب لها ما يبررها من فكرها الفلسفي منذ عهد أرسطو الذي يرى أن الله لا علاقة

له بالعالَم ، لا يعلم فيه شيئاً ، ولا يدبر فيه أمراً ، ومن فكرها الديني الذي يذكر ظاهر نصه مؤكداً قسمة الحياة بين الله وقيصر ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

أما العلمانية عندنا فهي ضد الدين ، وضد فكر الأمة ، وضد مصلحتها . وهي تجرد الأمة من طاقات هائلة كان يمكن أن تفجرها العقيدة والشريعة ، لو كانت العقيدة هي الموجهة ، والشريعة هي الحاكمة .

وقد جرَّبتْ بعض البلاد الإسلامية العلمانيةَ ، وقهرت شعوبها على الخنوع لها ، بسيف الجبروت ، وسوط العذاب ، بدعوى اللحاق بالغرب المتقدم ، والعالَم المتطور . فهل تقدّمت وتطورت حقّاً ؟

إن أبرز مثل لذلك هو تركية أتاتورك ، التي قلدت الغرب في كل شيء ، حتى في لِبْس القبعة ، وتحريم الطربوش ، ومنع الحجاب ، وعطّلت أحكام الشريعة القطعية حتى في الزواج والطلاق والميراث وشؤون الأسرة ، وعزلت الأجيال عن تراثها تماماً حين ألغت الحرف العربي وفرضت الحرف اللاتيني ، وقطعت الصلة بالعالَم الإسلامي عامة ، وبالعرب والعروبة خاصة ، حتى اعتبرت الأذان بالعربية جريمة .

فماذا كانت النتيجة ؟

لم تستطع أن تقتلع جذور الإسلام ، برغم حذفه من التعليم والثقافة والإعلام ، وعاش معظم الشعب في صراع بين السطوح والأعماق ، بين الجذور والأوراق ، بين الماضي والحاضر ، بين العقيدة والواقع .

وانتهت تركية العلمانية إلى ما عبّرت عنه كاتبة تركية بقولها : كنا أول دولة في الشرق ، فأصبحنا آخر دولة في الغرب !

بل إن الغرب نفسه برغم تهالك الدولة التركية على الارتماء في أحضانه والانتماء إليه لم يعترف بتركية عضواً في جسمه ، وجزءاً من حضارته ، ولهذا لم يقبلها في السوق الأوروبية المشتركة ، وقال في ذلك المستشار الألماني بصراحة : إن تركية تنتمي إلى حضارة غير حضارتنا !

وبذلك جسَّدت تركية العلمانية قصة الغراب الذي حاول أن يقلد النسر ، فلم يفلح أن يكون نسراً ، ولم يصلح أن يعود غراباً !

* * *

● تأكيد كرامة الإنسان

ومما ينبغي التفاهم عليه والتواصي به : تأكيد كل ما يرعى كرامة الإنسان ، ويحترم فطرة الإنسان ، وينمي خصائص الإنسان .

إن الحكماء والبصراء المنصفين من مفكري الغرب وجَّهوا النقد العنيف إلى حضارتهم ، لأنها أعلت من شأن الجماد أو المادة ، وهبطت بقيمة الإنسان .فعلينا أن نؤكد ذلك ونتبناه ، ونجعل من ثقافتنا الإنسانية واقعاً حيّاً في أرضنا ومجتمعاتنا ، ونمكن لها في حياتنا العقلية والوجدانية ، حتى تؤدي دورها المطلوب في البناء والإعلاء .

لقد سقطت دولة الشيوعية في بلادها الأم ، برغم ما تملك من طاقات علمية وتكنولوجية ضخمة ، وما لديها من ترسانة عسكرية هائلة ، بما فيها الأسلحة الاستراتيجية والنووية ، وما عندها من موارد مادية وبَشرية وفيرة . ومع ذلك كله انهار هذا العملاق الضخم ، وهوى فجأة ، وقبلها كان يهدد العالَم كله بغزو أفكاره وفلسفته المادية .

وقد أبان هذا الانهيار أن ثقافته كانت هشة في حقيقتها ، وإن كانت في ظاهرها ثقافة متماسكة لها فلسفتها في الوجود ، وفلسفتها

في المعرفة ، وفلسفتها في القيم ، وفلسفتها في تفسير التاريخ ، وقد عبرت عن هذا كله مناهج ، ومدارس وجامعات ، وجند لخدمته علماء وأدباء ودارسون ، وأجهزة إعلامية جبارة ، ورصدت لترويجه ملايين بل بلايين الروبلات .

وما ذاك إلا لأن هذه الثقافة لم تلائم فطرة الإنسان ، ولم تراع خصائص الإنسان ، لأنها لم تعرف حقيقة الإنسان . نظرت إليه باعتبار أنه «كائن اقتصادي» فقط . ينتج ويستهلك . ولا روح له ، ولا خلود له ، ولا رسالة له وراء إشباع غرائزه الدنيا . ورأت أن «الإنسان يقوم وحده» في هذا الكون ، لا رب يحكمه ، ولا غاية من خلقه . وقد عبّرت عن ذلك بقولها : «لا إلَهَ والحياة مادة» ! ومن ثَمَّ كان الدين عدوّاً لها ، وكان الإلحاد ركيزتها .

وسقوط دولة الاشتراكية وذهاب ريحها ، لا يعني أن الدولة العلمانية الليبرالية في غرب أوروبا وأمريكا دولة قوية ، إنها قوية في الظاهر ، كما كانت الدولة الاشتراكية تبدو لنا أو للناس كذلك . ولكن السوس ينخر في كيانها من الداخل . وثقافتها لا تتناقض في جوهرها تناقضاً كبيراً ، مع الثقافة الاشتراكية ، إن كلتيهما تنبع من مصدر واحد هو العقل البَشري المادي المحدود ، ولا تفكر إلا في حاضر هذه الدنيا ، ولا تتخذ من الوحي مصدراً ، ولا تعترف بالله حاكماً ، ولا مدبراً . كلتاهما تستغني بالأرض عن السماء ، وبالعقل عن الوحي ، وبالدنيا عن الآخرة ، وبالإنسان عن الله جلَّ جلاله : **﴿يَعْلَمونَ ظاهِراً مِّنَ الحَياةِ الدُّنْيا وهم عَنِ الآخِرَةِ هم غافِلون﴾** [الروم : ٧] .

لقد عبَّر «اليوبولد فايس» (محمد أسد) عن ذلك بقوله : إن الحضارة الغربية لا تجحد الله جحوداً صريحاً ، ولكن ليس لله مكان

في نظامها الفكري الحالي[1] .

* * *

● **المحرقة التي تُعَد لدعاة الإسلام !**

إني ألمح في الأفق بوادر بل نذراً خطيرة . ففي «غرف العمليات» في عواصم الغرب الكبرى ، تعد الخطط المدروسة والتي تُغَذّيها جامعات وجماعات ومراكز بحوث أكاديمية علمية ، وقد أنفق عليها عشرات بل مئات الملايين بسخاء تُعَد هذه الخطط الاستراتيجية كما يقولون لحرب ضروس ، هدفها ضرب هذا العملاق الذي تحرّك بعد طول رقود أو حبس ، وهو الإسلام الذي ظهر بقوة ، وأثّر بسرعة في الحياة الفكرية والسلوكية والاجتماعية والسياسية للمسلمين فيما يسمى «المدّ الإسلامي» أو «البعث الإسلامي» أو «الصحوة الإسلامية» . الخطة الآن تُهيّأ بل هُيِّئت بالفعل لضربه وسحقه ، تحت عناوين مضلّلة أو مصطلحات هلاميّة غير محددة .

وذلك مثل عناوين «الإرهاب» و«التطرف» و«الأصولية» وليس المقصود هو ضرب التطرف ولا الإرهاب ، فهم الذين مهّدوا لهما السّبل ، وهم الذين قاوموا الفكر الإسلامي الذي يؤمن بالحوار والاعتدال ، ولم يَفسحوا له المجال ليعمل كغيره تحت مظلّة القانون . حتى إنهم سمحوا للفكر الشيوعي المناقض بصراحة لعقيدة الأمة أن يُعبِّر عن نفسه بصورة رسمية ، ورفضوا كل الرفض أن يعطوا هذا الحق للإسلام ، المعبِّر الحقيقي والوحيد عن ضمير هذه الأمة !

وحين دخل الإسلاميون معهم في لعبة الديمقراطية ، واحتكموا إلى

(١) من كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» لمحمد أسد . ترجمة د . عمر فروخ .

صناديق الانتخاب ، وظهر أن الشعب قد اختارهم ، كما في الجزائر ، قطعوا الطريق عليهم ، وتدخلوا بالقوة لإلغاء الديمقراطية كلها ! وقد قال المفكر الكبير رجاء جارودي عندما شارك في ندوة «الثقافة العربية» بالدوحة : إن الغرب قد قسّم المسلمين إلى صنفين : أخيار طيبين ، وأشرار خبثاء . فالأخيار الطيبون الذين يخضعون لأوامر وتوجيهات البنك الدولي ، وصندوق النقد الدولي . والأشرار الخبثاء هم الذين يرفضون ذلك .

ونقل عن أحد الأدباء الساخرين قوله : إن الشعب إذا صوّت ضد الحكومة يجب أن يُحَل الشعب ، لتبقى الحكومة !

قال جارودي : وهذا بالضبط ما حدث في الجزائر .

إن الديمقراطية مقبولة ، بل مطلوبة ، بل لازمة، إذا أتت بالعلمانيين واللادينيين ، ولو بانتخاب مكشوف زيفها، أما إذا أتت بالإسلاميين ، فالشعب لم ينضَج بعد، والديمقراطية غير صالحة له . وقاتل الله النفاق !

إنها «محرقة» تُعَد بإحكام للصحوة بل للأمة الإسلامية ، تديرها وترسم معالمها وخطواتها أيد خفية من هناك ، من بعيد ، وراء «الكواليس» وتنفذها أيد ووجوه عربية مسلمة ، هي التي تظهر على خشبة المسرح.

إن هذا المارد خطر ماحق ، فلا بد من العمل الجاد المخطَّط لإعادته إلى القمقم ، كما كان لمدة قرن أو قرنين من الزمان . ولا بد من الاستعانة بكل القوى من يمين ويسار ، وبكل الخصوم من غرب وشرق ، وبكل مَن يهدد المارِدُ الإسلامي مصالحهم في الداخل والخارج ، لمحاولة الإمساك به ، طوعاً أو كرهاً ، حتى ندخله القمقم : قمقم الغفلة والهمود وغياب الوعي .

ولا بد من إعادة النظر في الأدوات الثلاث الجبارة التي تصنع

الأفكار والميول والأذواق والمشاعر ، وهي : التعليم ، والإعلام ، والثقافة ، وهي الأسلحة الفعّالة في تلك الحرب الضروس التي بدأت بالفعل ، بصورة وأخرى ، وفي بلد وآخر .

* * *

● فلسفة تجفيف المنابع

والفلسفة التي تقوم عليها هذه الأدوات أو هذه المؤسسات هي ما أسماه بعضهم بصراحة : سياسة «تجفيف المنابع» يقصدون : منابع التدين الإيجابي المتحرك المحرِّك . فكل ما يدعو إلى تعميق الإيمان برسالة الإسلام ـ بوصفه عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ـ وكل ما يدعو المسلم إلى الاعتزاز به والغيرة عليه ، والموالاة لأوليائه ، والمعاداة لأعدائه ، وكل ما يدل على أصالة المسلم واستقلال شخصيته ، وتميزه فرداً ، وتميز أمته بين الأمم ، بوصفها «أمة وَسَطاً» ، وكل ما يوحي بأستاذية الأمة وشهادتها على الناس ، وكل ما يُذكّر بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة في الدين ، والتواصي بالحق والصبر ، وكل ما فيه حث على الجهاد في سبيل الله ، ووجوب إعداد ما يُستطاع من قوة لإرهاب عدوّ الله وعدوّ الأمة ، وكل ما يشير ولو من بعيد إلى وجوب الحكم بما أنزل الله ، ووصف مَن تركه بالكفر أو الظلم أو الفسوق ، أو بها جميعاً ، وكل ما يومئ إلى مقاومة الجور والانحراف ، ولو بكلمة حقّ عند سلطان جائر ، وكل ما يدعو إلى احتشام المسلمة والتزامها بالحجاب الذي فرضه الله عليها بمحكمات النصوص من القرآن والسُّنّة ، وكل ما يدعو إلى قوّامية الرجال على النساء ، كما نص على ذلك كتاب الله ، وكل مايحذّر من غدر اليهود ، وكيد الكافرين . . كل ذلك وأمثاله خطر يجب أن يُقاوَم ، ووباء

يجب أن يُحاصَر .

وبعبارة أخرى يجب أن «تُطَهَّر ! !» مناهج التعليم وكتبه ، وبرامج الإعلام ، وأدوات الثقافة والتوجيه والترفيه ، من كل ما يتضمن تلك المعاني التي أشرنا إليها ، وما شابهها .

بل يجب «تفريغ» تلك المؤسسات وأجهزتها المتنوعة من كل ما يوحي بأن الإسلام هو الحق ، وما عداه باطل ، وأنه صراط الله المستقيم ، وما عداه سُبُل فيها هدى وضلال ، وصواب وخطأ .

فإن أخطر ما يفرزه التدين المشدود إلى القرآن والسُّنَّة وفهم سَلَف الأمة أنه ينشئ عقلية تؤمن أنها تملك وحدها «الحقيقة المطلقة» ! ﴿فماذا بَعدَ الحَقِّ إلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس : ٣٢] ، وهذا أصل العصب وجرثومته .

والمنهج المطلوب اتباعه في المرحلة الجديدة : أن نغرس في نفوس الشعب وبخاصة الناشئة ما سموه «نسبية الحقائق» فليست هناك حقيقة بإطلاق ، إنما هناك حقيقة لدى هذا الشخص ، أو في هذه البيئة أو في ذلك العصر . وقد تكون هذه الحقيقة نفسها أسطورة زائفة لدى شخص آخر ، أو في بيئة أخرى ، أو عصر آخر .

قد تقول باعتبارك مسلماً : إن التوحيد حقيقة لا ريب فيها ، دلّت عليها الفطرة ، ودلّ عليها العقل ، ودلّ عليها الوحي .

ولكن النصرانيّ يقول بالتثليث ، وأن الله ثالث ثلاثة .

والهندوسي يقول بتعدد الآلهة ، وأن الإله قد يحل في بعض الحيوانات كالبقرة أو بعض الجبال أو بعض الأنهار . فما الذي يجعل قولك أولى من قولهم ؟ ودعواك أحقّ من دعاويهم ؟ ودينَك أحرى من دينهم ؟

وقد ترى باعتبارك مسلماً : أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن المنزّل عليه كلام الله ، وأن الشريعة التي جاء بها من عند الله .

ولكنْ هناك آخرون من أصحاب الأديان المخالفة ، أو ممن لا يدينون بدين ، يرفضون هذا كله ، ويقولون في محمد وكتابه ودعوته وشريعته أقاويل أخرى . ولكلٍّ رأيه ووجهته ، وأدلّته التي يستند إليها .

فلا داعي للغضب من هؤلاء ، ولا للإنكار عليهم ، فمَن يدري : لعلّ ما تحسبه الحقّ الذي لا ريب فيه ، يكون هو الباطل الذي لا ريب فيه ! ! !

وقد ترى بحكم ثقافتك الإسلامية أن بعد هذه الحياة الفانية حياة أخرى ، تُنصَب فيها الموازين ، وتُنشَر فيها الدواوين ، وتُوفّى كل نفس ما كسبت ، وتكافأ بما عملت ، ثواباً أو عقاباً ، جنة أو ناراً .

ولكنْ هناك آخرون ينظرون إلى الحياة الأخرى نظرة مغايرة ، فيقولون بتناسخ الأرواح ، أو ببعث روحي لا مكان فيه لنعيم حِسّي ، ولا لعذاب مادّي . بل يوجد مَن لا يؤمن بالآخرة ولا بالخلود قط ، بل مَن لا يؤمن بالدين من أصله ، ويراه أكذوبة اخترعها الأغنياء لإلهاء الفقراء ، أو الحكّام لتخدير المحكومين ، ويُردِّدون ما قاله الفيلسوف المادي : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله ! !

وليس الذي يقول مثل تلك المقولات من عوام الناس وأغبيائهم ، بل من خاصة مثقفيهم وأدبائهم وفلاسفتهم ، فكيف تعتبر قول هؤلاء باطلاً كلّه ، وقولك أنت هو وحده الحقّ المبين ؟ ! !

إن الذي يليق بك أيها المثقف العصري أن تتسم برحابة الأفق ، وتنظر إلى الحقائق مهما كان مصدرها باعتبارها أموراً نسبية ، تختلف باختلاف الزمان والمكان والإنسان .

هذا هو المقصود من المعركة الجديدة مع «الأصولية الإسلامية» : تجفيف المنابع ! إنها الفلسفة «السوفسطائية» عادت من جديد . تريد

أن تفرض نفسها على أمة الإسلام . وهي تملك سيف المعز وذهبه . وتملك ما لم يملكه المعز ، ولم يكن ليحلم به ، وهو : الأجهزة المقتدرة في التعليم والإعلام والثقافة !

والمعركة الكبرى اليوم في أكثر من بلد عربي : معركة التعليم ، وتفريغه من كل ما ينشئ الروح الإسلامية ، والعقلية الإسلامية ، والنفسية الإسلامية ، وتهيئة مناخ فكريّ ونفسيّ جديد ، يقبل «التطبيع» مع اليهود ، والخضوع لإسرائيل ، والانحناء لهيمنة «النظام العالمي الجديد» كما يسمونه . بما يحمله من أحقاد علينا ، وأطماع فينا ، واستخفاف بنا ، وإذلال لكرامتنا ، كما لمسنا ذلك في كل قضايانا من قضية فلسطين إلى قضية البوسنة والهرسك .

ولم يقف الأمر عند تفريغ المناهج والكتب من الإسلام الإيجابي المحرّك ، فقد يعوِّض المدرس المؤمن نقص المنهج ومقرر الكتاب ، بما يبثه من روح ، وما يشعره من فكر ، وما يدل عليه من سلوك .

ولهذا كانت الخطوة اللازمة هي تفريغ المدارس والمعاهد والمؤسسات التعليمية من العناصر الإسلامية الملتزمة ، وإقامة مذبحة كمذبحة القلعة المشهورة ، لهؤلاء «الأصوليين» بإبعادهم عن التعليم كله ، ليخلو الجو للمنافقين والوصوليين والعلمانيين ، ليُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، ويحوِّلوا وجهة الجيل من المسجد إلى المسرح والسينما ، ومن تلاوة القرآن إلى قراءة القصص ، ومن الحماس للإسلام والجهاد إلى الحماس للكرة والنوادي ، ومن احترام أهل العلم والتقوى والجهاد إلى تمجيد أهل الغناء ، والرقص والتمثيل . وبذلك تختل القيم ، وتضطرب الموازين .

والهدف من ذلك كله واضح جلي لكل ذي عينين : غسل مخ الجيل الحاضر ، والأجيال القادمة ، وصنع إسلام زائف لها ، لا صلة

له بإسلام القرآن والسُّنّة ، ولا بإسلام سَلَف الأمة ، إسلام «تفصّله» الحكومات على قَدّها ، ويعمل فيه «مقص الرقيب» ما يشاء عمله من القطع واللصق ، والحذف والإضافة ، والتقديم والتأخير .

* * *

● حتى المسجد لم يعد خادما للإسلام

بقي جهاز مهم لا يتبع الإعلام ولا الثقافة ولا التعليم ، وهو المسجد ، وقد كان فيما مضى هو الملاذَ الوحيد الباقي لأحرار العلماء والدعاة ، ليقولوا فيه كلمتهم ، ويُبَلِّغوا دعوتهم ، وخصوصاً المساجد الأهلية التي لا تخضع لهيمنة الحكومة ، وإشراف وزارات الأوقاف الرسمية .

ولكن الحكومات تنبهت إلى خطر هذه المؤسسة وتأثيرها على فكر الشعب ووجدانه ، إذا تهيأ للمسجد عالِم متمكن صاحب رسالة ، إنه يستطيع أن يقنع العقول ، ويوقظ المشاعر ، ويبعث العزائم ، ويُحرِّك الجماهير في الاتجاه الذي يؤمن به ، ويُكوِّن مدرسة دينية مستنيرة حرّة الإرادة والفكر ، تأخذ عنه وتتلمذ عليه ، وفي هذا خطر جسيم .

فكان ما تواصت به وزارات الأوقاف والشؤون الدينية في عدد من البلدان التي اتخذت من الإسلام الإيجابي موقف الخصومة الصريحة ، وهو : إبعاد العناصر المتحركة المحرِّكة من المساجد ، وجعل المساجد كلها تحت سلطان الدولة ، أو دولة السلطان ! وتعيين أئمة وخطباء لها يدورون في فلك الحكم ، يمدحون ما يَمدح ، ويذمون ما يَذم ، وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، إن لم يكن اقتناعاً ، فخوفاً وطمعاً .

وهنا اكتملت حلقات السلسلة أو الطوق الذي يطوِّق الفكر الإسلامي الراشد، الملتزم بهُدى الله تعالى، وهَدْي رسوله ﷺ.

* * *

● **هل ينجحون ؟ !**

ومع هذا أستطيع أن أقول بلا تردد: إن الإسلام أعمق جذوراً، وأقوى سلطاناً، وأعز نفراً، وأكثر جنداً، مما يظن الظانون. وأنه رغم هذا التخطيط الماكر، والكيد المبيّت ستظل هناك ألسنة صدق، وأقلام حق، وأيدي عطاء، ومصابيح هداية، ومفاتيح خير، وجند دفاع عن الإسلام، يظهرهم الله من حيث لا يحتسب أحد، يحملون أمانة الكلمة، ويؤدون رسالة الله: ﴿**وما يَعلمُ جُنودَ ربِّكَ إلاَّ هُوَ**﴾ [المدثر: ٣١].

ولقد جرّب الاستعمار، وجرّب ورثته من المَلَكيات والجمهوريات على اختلاف الاتجاهات الليبرالية والثورية الدخول في معركة مع الإسلام ودعاته، واستخدموا ما يحل وما لا يحل من أساليب البطش والإيذاء، فشربت سياطهم الدم، ونهشت كلابهم اللحم، ودقّت آلات تعذيبهم العظم، وقُتِلَ مَن قُتِل، وشُرِّدَ مَن شُرِّد، ونُكِّلَ بمَن نُكِّل، ولكن الله تعالى أخرج الحيّ من الميت، وأبرز من الأجيال التي ربّوها في حضانتهم، وظنوا أنهم صنعوها على أعينهم، «جيلَ الصحوة» الذي شرّق وغرّب، وأثبت وجوده في عالم الفكر، وعالم الجهاد، وعالم الاقتصاد، وعالم الدعوة، وعالم السلوك.

لا أمل إذن في انتصار تيّار التغريب العلماني على الإسلام، وإن استعان بالخبرات العالَمية، والمكايد الصليبية، واليهودية، والوثنية، المتربصة بالإسلام. وأنفق العشرات أو المئات من الملايين

في معركته تلك ، فهي معركة خاسرة في النهاية . ﴿**فسَيُنْفِقونَهَا ثُمَّ تَكونُ عليْهم حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبونَ**﴾ [الأنفال : ٣٦] .

كل ما في الأمر أن المسيرة ستتعثر بعض الوقت ، وأن الشهداء سيسقطون في سبيل الله . وأن المحن ستظل تصقل الناس ، وتميِّز الخبيث من الطيب ، ولكن القافلة لن تتوقف ، والعمل لن ينقطع ، والفجر لن يموت ، وإن طال الليل ، واحلولك الظلام . سُنَّة الله التي لا تتخلّف ، مع الرسل والأنبياء وأصحاب الدعوات ، وحملة الرسالات : ﴿**إنْ يَمْسَسْكم قَرْحٌ فقد مَسَّ القومَ قرحٌ مِثْلُه وتلكَ الأيَّامُ نداوِلُهَا بينَ النَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ الذينَ آمَنوا ويَتَّخِذَ مِنْكم شهداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ولِيُمَحِّصَ اللهُ الذِينَ آمَنوا ويَمْحَقَ الكافِرِينَ**﴾ [آل عمران : ١٤٠- ١٤١] .

﴿**أمْ حَسِبْتم أن تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكم مَّثَلُ الذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكم مَّسَّتْهم البَأساءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلوا حَتَّى يَقولَ الرَّسولُ والذينَ آمَنوا معه متى نَصرُ اللهِ ألا إنَّ نَصرَ اللهِ قَريبٌ**﴾ [البقرة : ٢١٤] .

يستطيع هؤلاء أن ينجحوا في حالة واحدة : إذا حذفوا القرآن الكريم ، فلم يعد تحفظه الصدور ، ولا تتلوه الألسنة ، ولا تحويه المصاحف ! كيف وقد قال تعالى : ﴿**إنَّا نَحنُ نَزَّلْنا الذِّكرَ وإنَّا له لَحافِظونَ**﴾ [الحجر : ٩] .

وحذفوا كذلك البخاري ومسلماً وسائر كتب الحديث ، ودواوين السُنَّة ، وكتب السيرة والمغازي من علوم الأمة .

وحذفوا أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وأبا عبيدة وخالداً وطارق بن زياد وصلاح الدين وقطز ومحمداً الفاتح وعبد القادر

الجزائري وعمر المختار والخطابي وأمثالهم من ذاكرة الأمة .

وحذفوا أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وابن حنبل وزيد بن علي وجعفراً الصادق وجابر بن زيد ، وابن حزم وابن تيمية والغزالي وغيرهم ، وغيرهم من عقل الأمة .

وحذفوا ابن عبد الوهاب والسنوسي والمهدي والأفغاني ومحمد عبده ، ورشيد رضا وحسن البنا والمودودي وسيد قطب والسباعي وغيرهم ، وغيرهم من حياة الأمة .

وحذفوا وحذفوا وحذفوا . . . إلى أن يحذفوا الأمة نفسها ! !

وهيهات ! إن هذه الأمة لن تموت[1] ، لأنها أمة الرسالة الخالدة ، لأنها خاتمة الأمم التي تحمل خاتمة الشرائع لخاتم النبيين ، فهي باقية حتى يرث الله الأرض ومَن عليها .

بَيْدَ أن مما يجب تأكيده هنا : أن هذا المناخ المشبع بروح العداء الأسود للإسلام ، والضغط المكثف على علمائه ودعاته ، والمقاومة المستميتة لصحوته ، المستخفة بماضيه وحاضره ومستقبله . . هذا المناخ المكفهر هو أعظم مُولِّد للتطرف والعنف والإرهاب ، والانفجارات المتنوعة الصور ، المختلفة الأساليب ، فإن العنف لا يثمر إلا عنفاً مثله أو أشد منه ، والضغط إذا زاد لا يولد إلا الانفجار . هذا قانون من قوانين الله في الخلق لا تمكن مقاومته .

ولا يكفي في إيقاف هذا الذي نسميه : التطرف أو العنف أو الإرهاب ، أيّاً كان سببه ، وأيّاً كان موقفنا منه ، مجرد إصدار الفتاوى الرسمية ، والدعايات الإعلامية ، ونشر الكتب العلمانية ، التي

(١) انظر : فصل «هذه الأمة لن تموت» من كتابنا «من أجل صحوة راشدة» ، طبع المكتب الإسلامي بيروت .

يضعون عليها ختم «التنويرية» ، وإعلاء صوت التغريب واللادينية على صوت الإسلام الحق ، بل هذا كله يزيد النار اشتعالاً ، ويدفع لها بالوقود بعد الوقود .

وإذا استمر هذا الوضع ، فإن المعركة ستكبر وتطول ، لأنها ستكون مع الأمة قاطبة ، وستفقد الأنظمة أساس شرعيتها أمام شعوبها ، وستتسع المقاومة لهذا الكفر البواح ، حتى تمسي الأمة كلها «جماعة إسلامية» ! !

* * *

● التديُّن الذي يروِّجون له

هناك نوع من التدين مباح ، بل مطلوب ومرغّب فيه ، تُدَق له الطبول ، ويُحْرَق له البخور ، وهو التدين الذي ترعرع في عهود التراجع والتخلف ، ثم في عهود الاستعمار من بعده ، ثم في عهود الحكم العلماني الذي ورث الاستعمار .

إنه التدين الذي يروِّج الأساطير ، ويُخدِّر الإرادة ، ويشل الفكر ، ويجمِّد الحركة ، ويجمع الناس حول أضرحة الأولياء ، وموالد الأتقياء ، ولا يدخل في «السياسة الملعونة» إلا إذا كانت سياسة الحكومة ! لا يهتم فيه المتدين بأمر المسلمين ، بل يقول : نفسي نفسي . فشعاره : دع الخلق للخالق ، واترك المُلْك للمالك ! إذا سُئل عن منكر شاع ، أو ظلم استشرى ، كان جوابه : أقام العباد فيما أراد !

إنه التدين الذي ترسم الحكومة خطوطه ، وتنسج خيوطه ، وتصنع دعاته ، وتهيئ رعاته ، فهو تدين «مستأنَس» أليف ، سلس ظريف ، يسير في ركاب الدولة حيث سارت ، ويدور معها كيفما

دارت . إذا ادَّعت قال لها : صدقت ، وإن دعت قال : آمين . المعروف ما عرفته ، والمنكر ما أنكرته ، فهي المرجع المأمون ، بل المصدر المعصوم !

يقوم هذا اللون من التدين على الجَبْرية في العقيدة ، والشكلية في العبادة ، والسلبية في الأخلاق ، والمظهرية في السلوك ، والجمود في الفكر ، والتقليد في الفقه ، والنفاق في السياسة .

لا يعتمد في ثقافته على المصادر الأصيلة الموثقة ، بل جُلُّ اعتماده على الإسرائيليات والحكايات ، والرؤى والمنامات ، والأحاديث الضعيفة بل الموضوعة ، والروايات الواهية ، والتفسيرات المردودة .

وإذا أخذ عن علماء العصر ، فلا يولّي وجهه شطر العلماء العاملين ، من أهل العلم والورع والاعتدال ، وأهل الدعوة والتجرد والثبات ، بل معتمد هذا التدين المشبوه : هو علماء السلطة ، وعملاء الشرطة ، الذين جاء في وصفهم في الحديث الشريف : «يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من السُّكّر ، وقلوبهم قلوب الذئاب»[1] .

هذا التدين الفردي الانعزالي السلبي الهامد ، هو الذي تتباكى الأقلام العلمانية اليوم على فوات عصره الذهبي ، وانقضاء أيامه المشرقة ، ويعتبرونه هو «الأصل» الذي طرأ عليه هذا التدين «الأصولي» الشرِّير !

وهو الذي يتنادون بضرورة إحيائه وبعثه من مرقده ، وإطلاق العنان له ليصول ويجول ، في المساجد والزوايا ، والصحف والإذاعة

(١) رواه الترمذي في أبواب الزهد عن أبي هريرة (٢٤٠٦) .

والتلفاز ، ومطاردة ذلك التدين «الجديد» الخبيث .

وأغرب من ذلك تلك المحاولات الماكرة من جماعة العلمانيين ، لاعتبار فترة غياب الهوية ، وتذبذب الأصالة ، وظهور تيار التغريب ، وهيمنته بالقوة والحيلة على أزمّة التعليم والتوجيه والإعلام والتثقيف طوال فترة الاحتلال وما أعقبه اعتبار هذه الفترة بما أفرزته ، وما خلّفته هي الأصل والأساس ، وما خالفها بعد ذلك يكون شذوذاً عن القاعدة .

وهذا مما لا ينقضي منه عجب العاجب : أن تكون فترة الاغتراب عن الهُوية ، والانقطاع عن الجذور ، والارتماء في أحضان الدخيل ، والسير في ركاب الغازي بعسكره وقيمه وفكره وثقافته هي الأصل الأصيل والقاعدة المقررة . وإذا قُدِّر للأمة أن تصحو من سكرة ، وتستيقظ من غفوة ، تحاول أن ترجع إلى الذات ، وتعود إلى الأصول ، وتحيي ما مات من قيمها وآدابها ، وتجدد ما بَلِيَ من ثقافتها وحضارتها ، وتُحكِّم ما حُمِلت على تركه من دينها وشريعتها ، أو تُقوِّم ما اعوجَّ من تفكيرها وسلوكها ، قال لها قائلون : هذا فهم جديد على مجتمعنا ، بل هذا فكر دخيل علينا ، وربما كان وراءه أيدٍ أجنبية تحركه من وراء ستار !

* * *

● من الرابح من وراء ذلك ؟

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : مَن الرابح الحقيقي من وراء هذه المعركة الشرسة ضدّ صحوة الإسلام ودعوته وحركته ؟

بالتأكيد ليست هي أمة العرب ولا الإسلام . فإن الأمة لا تكسب باقتلاع جذورها ، وتبديد طاقاتها ، وتشتيت قواها الضاربة ،

وتمزيق شملها .

إن أمتنا هي الخاسرة بلا مراء ، من وراء هذا الصراع المرّ الذي يُدَار لحساب غيرها بيقين .

إنها الخاسرة على كل صعيد : أخلاقي أو اقتصادي أو سياسي أو اجتماعي .

وخسارتها لأسباب معلومة لا تحتاج إلى تفلسف :

١- لأنها إذا انفصمت عن دينها تصبح أمة بلا جذور ، وإن أي شجرة تُفصَل عن جذورها لا يمكن أن تعيش . ومن المؤكد أن جذور هذه الأمة في دينها .

٢- ولأنها إذا ضعف دينها ، ووهن انتماؤها للإسلام ، وتمسكها به ، فقدت المفجِّر الأول لطاقاتها المكنونة ، وقدراتها المختزنة .

وقد عرفنا من قراءة التاريخ ، واستقراء الواقع : أن الدين هو المحرِّك الأول لأمتنا ، والقادر على بعثها من الهمود ، وإخراجها من الجمود والخمود . والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصر .

٣- ومن ناحية أخرى ، فإن الطاقات التي كان ينبغي أن تُوظَّف في سبيل البناء والتنمية والتقدم الحضاري ، غدت تُوظَّف في الهدم لا البناء ، وفي التفريق لا الجمع ، وتغليب فئة على أخرى ، أو معسكر على آخر . بل في تغليب الأقلية المغتربة على جمهور الأمة ، وبهذا تتبدد الطاقات ، وتُهدر الإمكانات . بل تعمل في الطريق المضاد للأهداف الحقيقية للأمة .

٤- وبعد ذلك كله ، فإن هذا الصراع المستمر بين عقيدة الأمة ومواريثها الدينية والثقافية التي تعتبرها جوهر حياتها ، ومبرر وجودها وبقائها ، وبين القيم والمفاهيم الدخيلة عليها لن يدع سفينتها ترسو على بر الأمان ، بل ستظل تتأرجح وتضطرب أمام عصف الريح، وهيجان الموج، ومعاكسة التيار، مما يعرضها لأخطار لا يعلم عواقبها إلا الله .

إن القضية خطيرة والله ، بل هي في غاية الخطورة ، إذا تمت على ما أراد الذين خطّطوا لها ، أو بقيت مصدراً للاستنزاف الدائم ، فهل من فئة من العقلاء تتنادى بتدارك الأمر وتفادي الخطر ، وإطفاء الشرر ، قبل أن يفلت الزمام ، ويعز الخلاص ؟

أرى خَلَلَ الرمادِ وميضَ نار ... ويوشِك أن يكون لها ضِرامُ
لئن لم يُطْفِها عقلاء قوم ... يكون وقودَها جثثٌ وهامُ
فإنَّ النار بالعودين تُذكى ... وإنَّ الحرب أولها كلامُ

إن الرابح الحقيقي من وراء هذا الجذب والشد ، والجَزْر والمد ، هو القُوى المعادية لأمتنا ، التي تحركها الأحقاد القديمة ، والأطماع الجديدة ، والمخاوف الدائمة ، من ظهور الإسلام مرة أخرى ، في صورة أمة تملك القوة البَشرية ، والقوة المادية ، والقوة الروحية ، والموقع الجغرافي ، والبُعْد التاريخي ، والعمق الحضاري ، ولديها من الحوافز ما ليس لدى أمة أخرى ، وعندها ما تُقدِّمه للبَشرية الحائرة من كلمات الله ، وهداية السماء .

وفي مقدمة هذه القوى : إسرائيل ، التي ستقر عيناً ، وتطيب نَفساً ، بما يجري بجوارها ، من عزل الإسلام عن زمام القيادة ، وتنحيته عن التوجيه والتأثير والتجميع والتجنيد ، في حين تحرِّك شعبها باسم الدين ، وتجمعهم على التوراة وبهذا يدخلون المعركة

معنا ، ومعهم التوراة وليس معنا القرآن ، ويتنادون باسم موسى ، ولا نتنادى باسم محمد . ويقولون : الهيكل ، ولا نقول : الأقصى ! ويحترمون السبت ، ولا نحترم الجمعة ! فالدين عندهم شرف ، وعندنا تهمة ! ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإسرائيل اليوم في أسعد أوقاتها ، فقد اتفقت مع الكثيرين ممن كانوا خصومها بالأمس القريب ، على ضرب الصحوة الإسلامية . وغدت تعرض نفسها على كل القوى المعادية للإسلام لتتعاون معها في مواجهة «الأصولية الإسلامية» الناشزة[1] .

هكذا وقفت مع الصليبية في الغرب ، ومع الوثنية في الشرق، فهي عون للصربيين ضد أهل البوسنة والهرسك، وعون للهندوس ضد أهل جامو وكشمير .

وقد زار وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز الهند ، وأعلن لهم بكل صراحة استعداد بلاده للتعاون معها ووضع كل خبراتها وإمكاناتها ضد خصومها من الإسلاميين !

* * *

(١) وقد برز هذا بوضوح أكثر وأصرح ، بعد الاتفاق المشؤوم المسمى : (اتفاق غزة وأريحا) .

خاتمة

● **محاور التقاء :**

أحسب بعد هذه الفصول أن هناك محاور يمكن أن يلتقي عليها المخلصون ممن يُحسَبون من دعاة الأصالة ، ومَن يحسَبون من دعاة المعاصرة . بحيث يتفق عليها الطرفان ، ويغلقون ملفات الجدل حولها .

(أ) فقد تبيَّن لنا أن لا تناقض بين العروبة والإسلام في ثقافتنا ، إلا أن تحرّف العروبة حتى تكون ملحدة أو علمانية معادية للإسلام ، أو يحرف الإسلام حتى يكون شعوبياً معادياً للعروبة .

(ب) كما تبيَّن لنا أنه لا صراع في ثقافتنا بين العلم والدين ، أو بين العلم والإيمان أو بين العقل والنقل .

فالعلم عندنا دين ، والدين عندنا علم . والعلم دليل الإيمان ، والإيمان ملاك العلم . العقل عند علمائنا أساس النقل ، والنقل نفسه يشيد بالعقل ، ويحتكم إليه ، ولا تعارض عندنا بين صحيح المنقول وصريح المعقول .

(جـ) لهذا يجب أن نعمل جميعاً على تكوين العقلية العلمية ، وتطوير المؤسسات العلمية ، وتهيئة المناخ العلمي ، حتى تدخل الأمة عصر التكنولوجيا المتطورة بخطاً ثابتة .

كما يجب أن نعمل معاً في الوقت ذاته على إحياء معاني الإيمان ، وتجديد أخلاق الإيمان ، والوقوف في وجه تيَّار المادية واللادينية والإباحية .

(د) ومما تبيَّن لنا كذلك أنه لا تعارض بين الأصالة الحقة

والمعاصرة الحقة ، إذا فُهِمت كلتاهما على حقيقتها . فنستطيع أن نكون معاصرين إلى أعلى مستويات المعاصرة ، وأن نبقى كذلك أصلاء حتى النخاع .

إنما تتعارض الأصالة والمعاصرة ، إذا فُهِمت الأصالة على أنها الاحتباس الاختياري في سجن الماضي ، والمعاصرة على أنها الدوران في رحى الغرب .

لهذا يجب أن نتفق على رفض اتجاهين متطرفين :

الاتجاه الأول : الذي ينتهي بالأصالة إلى الجمود والتحجر ، ورفض كل جديد ، ومقاومة التجديد في الدين ، والاجتهاد في الفقه ، والإبداع في الأدب ، والابتكار في فنون الحضارة ، وإبقاء كل قديم على قدمه . والتسوية بين وحي الله تعالى وأفكار المسلمين ، وإضفاء القداسة على تراث السابقين كله ، ومعاداة كل نزعة إلى تطوير الحياة والمجتمع ، وإن كانت على أسس إسلامية ، وحظر الاقتباس من الآخرين ، ولو كان نافعاً للمسلمين ، غير مخالف لشريعتهم .

والاتجاه الثاني : اتجاه الذين ينحون بالمعاصرة نحو الفناء في الغرب ، واتباع سننه «شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه» ، ولا يكتفون بأخذ العلم والتكنولوجيا وحسن الإدارة والتنظيم منه ، واقتباس كل ما تنهض به الحياة ، مما لا يتعارض مع ديننا وقيمنا وشريعتنا ، بل هم يصرّون على نقل الأنموذج الغربي إلينا بكل عناصره ومقوّماته ، وبخاصة جذوره الفلسفية ، ومفاهيمه الفكرية ، ومجاليه الأدبية ، وتقاليده الاجتماعية ، وقوانينه التشريعية ، ومؤثراته الثقافية .

إن كِلاَ الاتجاهين مرفوض ، فأولهما يمثل الإفراط ، والآخر يمثل التفريط ، ولا خير في واحد منهما ، إنما الخير في التوسط والتوازن .

(هـ) وقبل ذلك كله ، يجب أن نشيع روح التسامح بين المختلفين ، سواء أكان اختلافاً في الدين أم في المذهب ، أم في الفكر أم في السياسة . وأن نفتح باب الحوار العلمي الراقي ، الذي سمَّاه القرآن «الجدال بالتي هي أحسن» مع التركيز على نقاط الالتقاء والاشتراك ، لامواضع التمايز والاختلاف ، مستهدين بقول الله تعالى : **﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهم بالَّتي هِيَ أَحسَنُ﴾** [النحل : ١٢٥] .

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ .

* * *